إيران والتنافس الاستعماري

ابتداءً من القرن السابع عشر

نواف فلاح الحميدي(*)

مقدمة:

إن موقع إيران الجغرافي قد جعلها مقرًا للهجرات والموصلات البرية بين منطقة الشرق الأقصى في آسيا ومناطق أوروبا وبلدان البحر الأبيض المتوسط، ولقد بسط حكامها نفوذهم على مدى التاريخ شرقي الهضبة الإيرانية وأسسوا إمبراطورية كبيرة جعلت إيران طوال العصور ممرًا للطرق التجارية الرئيسة بين الشرق والغرب.

وبطبيعة الحال فإن الاستعمار لا يأتي بالخير للدول المستعمرة على الأغلب، بل تتم عملية الاستعمار وفق معايير مصلحية بحتة الهدف منها سرقة الخيرات والثروات الطبيعية أو الهيمنة على الطرق التجارية إلى آخر ذلك من مبررات السيطرة والهيمنة، ولم تكن العلاقة بين دول الاستعمار والدولة المستعمرة علاقة صداقة على الإطلاق، لكنها كانت كعلاقة العبد وسيده، لذلك تولدت حالة من الكره والبغض عند سكان الدول التي استعمرت وسلبت خيراتها.

وكمثال حي على تلك العلاقة اتخذنا إيران كحالة من تلك العلاقة التي تولد الكره والبغض، فأغلب المجتمع الإيراني الآن يكره ويحتقر تلك القوى التي

(*) باحث كويتي.

كانت يومًا من الأيام تحتل إيران، سواء كانت الدولة المستعمرة روسيا (الاتحاد السوفيتي) أو بريطانيا أو الولايات المتحدة الأمريكية.

وسأحاول في بحثي تسليط الضوء على بداية أول استعمار لإيران ومسبباته مرورًا بالدول الأخرى المستعمرة، وسأحاول التركيز على أبرز تلك النقاط الخلافية كمثال على موقف دول الاستعمار من الحياة الدستورية في إيران بداية القرن الماضي، وموقف تلك الدول من ثورة محمد مصدق ١٩٥١م في تأميم البترول، سأستخدم في بحثي هذا منهجين: منهج البحث التاريخي ومنهج البحث النقدي.

وقد استعنت بعدد من الكتب والوثائق التاريخية والمصادر الأجنبية التي ستعينني على إتمام هذا البحث بصورة طيبة إن شاء الله.

إيران التاريخ والحضارة:

أوضحت الأدلة الأثرية التي تم الكشف عنها في العديد من المواقع والأماكن الإيرانية أن الإنسان الإيراني قد عاش بالفعل منذ عصر ما قبل التاريخ على الهضبة الإيرانية، وكان يعيش في الكهوف والمآوى الصخرية التي كان يلجأ إليها الإنسان في تلك الفترة؛ لتقيه من الأحوال الجوية الصعبة التي كانت سائدة في تلك الفترة، ولقد عثر في هذه الكهوف والأماكن الصخرية والملاجئ الأخرى على الكثير من الآثار الإنسانية التي أمكن من خلالها تتبع ومعرفة مراحل حياة الإنسان على الهضبة الإيرانية في عصور ما قبل التاريخ.

وقبل الخوض في هذا البحث علينا أولاً أن نميز بين كلمة إيران وكلمة بلاد فارس، وما دلالات الكلمة ومعناها ومصدرها وقدمها على الأخرى؟ والحقيقة أن أغلب المصادر والكتب أكدت أن كلمة إيران هي الأقدم، وقد

وردت في الأوستاك.. إيرنافيجا أي مواطن الآريين وتطورت الكلمة بعد ذلك فصارت بلاد فارس[1].

والآري تعني الإنسان النبيل أو السيد، وعلى ما يبدو إنها تسمية عامة لهؤلاء الناس الذين يتحدثون اللغة الهندوروبية الشرقية (ولعل التسمية كانت السبب في تميز شخصية الجنس الآري بالكبرياء والعنفوان، وهو ما نشاهده حاليًا في الشخص الألماني والشخص الإيراني على حد سواء)، والذين جاءوا إلى هذه المنطقة الواقعة بين نهر الجانج والفرات عند نهاية الألف الثاني وبداية الألف الأول قبل الميلاد[2].

أما كلمة فارس فيقال أنّ مَن أطلقها هم الإغريق، وأخذ هذا الاسم من إقليم بارسا في الجزء الجنوبي الغربي من الهضبة، وحرّف هذا الاسم عند الإغريق ليصبح برسيس، ثم أطلق عليها العرب كلمة فارس، وعلى الرغم من أن بارسا تكون إقليمًا واحدًا في إمبراطورية عظيمة فإنها استمدت شهرتها من كونها مسقط رأس الملوك الهخشامنيين الذين شكلوا بيت الحكم الفارسي وأطلقت كلمة فارس بعد ذلك وبواسطة الإغريق على الإمبراطورية كلها بشكل عام وأشمل[3].

ولا يوجد أدنى شك في أن بلاد فارس لها من العظمة والتاريخ ما تعجز غيرها من الحضارات أن تحوزه، فهي أكثر البلاد وأعظمها في تبنيها للحضارات، فقد حوت هذه البلاد الحضارة الفارسية والحضارة العيلامية والحضارة الميدية والحضارة الإخمينية والحضارة السلوقية والحضارة البارثية والحضارة الساسانية، كما أن ملوكها هم الأشهر على الإطلاق فمن منا لا يعرف داريوس ويزدجرد وأردشير وشابور الأول وهرمز وكسرى أنو شروان وشيرويه... إلخ من ملوكهم.

والهضبة الإيرانية منطقة واسعة جدًا، وهي تبدو كمثلث محصور بين منخفضين، هما: الخليج العربي في الجنوب وبحر قزوين في الشمال، وهي تصل ما بين وسط آسيا وغربها، كما أنها بمثابة جسر إلى آسيا الصغرى وإلى قارة أوروبا[٤].

وتنقسم إيران إلى أربعة أقسام هي:

١- منطقة جبال زاجروس التي تتضمن السهول الخارجية الصغيرة وبصفة خاصة منطقة خورستان، وهي تكوين جزء من بلاد النهرين والأراضي المنخفضة الواقعة على الخليج العربي.

٢- سلسلة جبال البرز والمنطقة المحيطة ببحر قزوين.

٣- المرتفعات في الشرق والجنوب الشرقي.

٤- المنطقة الصحراوية المنخفضة في الوسط.

إن دراسة التركيبة السكانية الاجتماعية من أهم المجالات التي أولاها علماء السياسة والاجتماع اهتمامًا، حيث إنَّ هذه الدراسات لها تأثير إيجابي أو سلبي في العلاقات بين الدول وبخاصة المتجاورة.

ونلاحظ وجود ازدواجية في الولاء بين الوطن الأم والبلد الذي ينتمي إليه بالمواطنة، فالأقليات سواء كانت دينية أو عرقية أو مذهبية لها امتدادات في هذه الدول أو تلك التي نزحوا منها، حيث استقروا في بلد آخر وسط مجتمع مغاير.

والملاحظ أن المجتمع الإيراني يتألف من قوميات متعددة إلا أنه حقق درجة عالية من الامتزاج القومي انطلاقًا من إرادة مبعثها أساس ديني، وكانت سلطة الشاه في منطقة بوشهر وبندر ريج أقوى منها في أية منطقة أخرى على

الساحل الفارسي وقد لعبت القبلية دورًا كبيرًا في النشاط العربي بصورة ما نتيجة لعلاقاتهم مع بلاد فارس[٥].

لقد قامت السياسة الفارسية في الخليج العربي على بُعد أساسي وهو نزاعها مع الإمبراطورية العثمانية، وذلك بسبب محاولتها السيطرة على تجارة الخليج وإغلاق طريق البصرة - حلب، وتحويل التجارة عبر بلاد فارس وروسيا، وعبر رأس الرجاء الصالح[٦].

ومن الملاحظ أن الأحوال في إيران كانت مضطربة ومتغيرة لفترات طويلة، وهذا الأمر ساعد في تحرر الخليج من السيطرة الفارسية، لكن أخذت الدبلوماسية الفارسية تولي اهتمامًا بالخليج العربي، وخاصة بعد عام ١٧٢٦م عندما فشل نادر شاه في سياسته البحرية الهادفة إلى السيطرة على الخليج العربي وبحر قزوين، وكان من أسبابها عدم توافر البحارة الفرس اللازمين لمواكبة الطموح السياسي، حيث أغلب البحارة من الهنود والبرتغاليين.

لقد حاصر الجيش الفارسي البصرة حصارًا استمر ثلاثة عشر (١٣) شهرًا، وفي منتصف إبريل سنة ١٧٧٦م سلمت المدينة للجيش المحاصر، الأمر الذي أجبر بريطانيا على نقل مصالحها من البصرة إلى الكويت[٧].

سعت بريطانيا على وجه السرعة لنقل مراكزها البحرية والعسكرية من جزيرة خرج سنة ١٨٣٩م بناءً على رأي ضابطين إنكليزيين هما: الملازم أدموند مساعد المقيم البريطاني في بوشهر ببلاد فارس، والملازم جونز من البحرية الهندية، حيث قررا أن يختارا الكويت كموقع بديل ممكن إقرارًا منهما بإمكانات موقعها الاستراتيجي[٨].

ولكن هذا البديل لم يمنع بريطانيا من الإبقاء على مصالحها مع إيران قائمة، فما أن ظهر النفط في إيران حتى سارع رجل بريطاني هو وليام كبنوكس دارسي في عام ١٩٠١م للحصول على امتياز للتنقيب عن النفط من الشاه، حيث غطى كل فارس باستثناء الولايات الشمالية الخمس، ودشن الاكتشاف الكبير المفاجئ الأول للنفط عند مسجد السليمان بعد سبع سنوات من تاريخ الحصول على هذا الامتياز إيذانًا ببداية عصر النفط في الخليج العربي[٩].

لقد ظلت إيران محورًا لأنظار العالم في جميع العصور والعهود الماضية ومازالت، فطبيعية وجغرافية إيران وموقعها الاستراتيجي - كونها تقع على ممرات مائية ذات استراتيجية عالية - ربما جعلها تكابد الصراع مع القوى الخارجية من غزو الإسكندر الأكبر المقدوني حتى عهدنا الراهن، وقد استطاعت أن تتجاوز جميع الأخطار والمحن على مر التاريخ، وما يعنينا هو التاريخ الحديث والمعاصر الذي نستطيع القول أن بداية الأخطار على إيران بدأت بالتوجه الروسي نحو الهضبة الإيرانية، وقد بدا هذا التوجه منذ فترة بعيدة جدًا أي في أواخر العصر الوسيط، فقد ورد اسم مدينة تبريز مرارا في كتابات الرحالة الروس الأوائل الذين زاروا المنطقة، ووصفت تبريز بأنها مركز مهم للقوافل التجارية[١٠].

وقد ازداد اهتمام روسيا بإيران على عهد بطرس الكبير خصوصًا وأنه كان يفكر بإقامة تجارة مباشرة بين روسيا والهند إما عند طريق بحر قزوين بإيران أو عند طريق خيوة وبخارى، وفي كل الأحوال كان القيصر الروسي يخطط من أجل السيطرة على تجارة الحرير الإيراني الشهير الذي اشتهرت به مدنية تبريز على وجه الخصوص[١١].

استطاعت روسيا أن تجعل لها موضع قدم في إيران خاصة في شماله بل

ساهمت في نزع أراض إيرانية طبقًا لمعاهدة تركمانجاي ١٨٢٧م وباريس ١٨٥٨م، وأدت تلك الاتفاقيات إلى تنازلات إقليمية واستسلام اقتصادي ضار بالفئات الاجتماعية الإيرانية التي كانت بالأساس تعاني ويلات الحروب الداخلية والفقر والجوع الذي سببه صراع أجنحة الحكم في الأسرة القاجارية، وطبقًا للاتفاقات السابقة، فقد استطاعت روسيا إنشاء وكالات تجارية في إيران، وحصلت على إعفاءات جمركية، وخفضت لها رسوم عبور الطرق الإيرانية، نتج عن ذلك كله إغراق السوق الإيرانية بالبضائع المستوردة عالية الجودة مما أضعف منافسات الصناعات اليدوية الإيرانية، ومن أشهر الصناعات التي تضررت جراء ذلك صناعة النسيج اليدوي[١٢].

كذلك حصلت روسيا على امتيازات اقتصادية متنوعة، حيث حصلت شركة الطرق الروسية على عقود تعبيد الطرق في شمال إيران وتنظيف وإدارة ميناء (أنزلي)، واشترت شركة روسية أخرى حق صيد الأسماك في بحر قزوين، والإشراف على إنتاج السجاد في سلطان أباد، وزراعة القطن في خرسان والأفيون في كرمان[١٣].

نتيجة للهيمنة والسيطرة والجشع الروسي في إيران تحركت الجموع الجائعة والغاضبة للوقوف في وجه الجشع الروسي الذي كان من نتائجه إشعال الثورة الدستورية، لقد كان للقمة العيش والعوز والفقر الدافع الرئيس لإشعال الثورة، فالفقر انتشر في إيران ولم يكن أحد بمنأى عنه، فقد تعرضت النساء وخاصة الحسان للبيع مقابل سداد الضرائب المطلوبة، كما حدث على يد حاكم قوجان ١٩٠٣م.

بالفعل اشتعلت المظاهرات في كل أرجاء إيران، وساعد على ذلك وجود نخبة ثقافية تولت زمام المبادرة والقيادة كان من أبرز هؤلاء: كسروي وتبريزي

والشيخ طبطبائي وآية الله بهبهاني[١٤]، ومن الطبيعي أن يتخلل المظاهرات أعمال عنف أخذت تتزايد حتى توجت باغتيال الملك ناصر الدين شاه عام ١٨٩٦م وتولى من بعده ابنه مظفر الدين شاه ١٨٩٦-١٩٠٧ الذي استوعب الدرس جيدًا فلم يجد بُدًا من التخفيف من الضغط النفسي عن المواطن الإيراني فبدأ إصلاحاته بتخفيف الرقابة على الصحف الإيرانية والأجنبية، وشجع البعثات العلمية للخارج، وتوسع في فتح الكليات الحديثة للزراعة والعلوم السياسية وإنشاء الجمعيات التجارية والثقافية والتربوية.

لكن سوء حظ الملك مظفر شاه أنه لم يتحمل فساد وأخطاء والده فحسب بل شاركت الظروف الأخرى بتعقيد الموقف، فقد انتشر وباء الكوليرا بصورة كبيرة في جميع أرجاء إيران وهو نتيجة للكوارث والفقر وانخفاض الإنتاج الزراعي لكثرة الثلوج، وارتفاع أسعار المواد الغذائية بصورة جنونية، ولم يعد الحصول على القليل منها سهلاً حتى على ميسوري الحال، كما قلت عائدات الجمارك، وهي نتيجة طبيعية لسلسة الإعفاءات الإيرانية للسلع الأجنبية الأمر الذي جعل جميع أصحاب المهن اليدوية، ومنها الغذائية يهملونها ويتركونها بسبب قلة العائد المادي.

خرجت الجماهير الإيرانية على بكرة أبيها في مظاهرات كبيرة للتنديد بالملك وحكومته رغم الإصلاحات التي سبق ذكرها، وحصلت مصادمات بين المتظاهرين ورجال الأمن ووقع قتلى وإصابات، واشتدت الأزمة خصوصا في العام ١٩٠٥-١٩٠٦ ولم يجد الملك بُدًا من أن يستجيب للجموع الزاحفة الغاضبة، ويوافق على المطالب ليوقع على وثيقة لإنشاء الجمعية الوطنية لصياغة وكتابة الدستور الجديد لإيران.

توفي الملك مظفر شاه في عام ١٩٠٧م أثناء تشكيله الجمعية الوطنية لصياغة الدستور وتولى الحكم من بعده ابنه الشاه ميرزا الذي اشتهر بعلاقته الوثيقة مع روسيا وضعف شخصيته، وفساد الأمر الذي جعل الشأن الإيراني برمته يكون في يد روسيا، وتم توقيع اتفاق أنجلو روسي إيراني عام ١٩٠٧م، فقد دخلت بريطانيا بشكل أقوى من ذي قبل على الخط الإيراني، وهي ترى روسيا تضعف وتتضاءل قوتها نتيجة خسارتها في الحرب اليابانية الروسية ١٩٠٥م.

الاتفاق الأنجلوروسي ١٩٠٧م قطع حبل الود بين الملك ميرزا والمجلس النيابي الجديد الذي لم يمض على تشكيله سوى بضعة أشهر قليلة بعد أن فوض الاتفاق لروسيا السيطرة المباشرة على شمال إيران، فرفض البرلمان الجديد الاتفاقية الأمر الذي جعل روسيا تحرض الملك على حل البرلمان وإلغاء الدستور. الملك بدوره كان ينتظر الذريعة ولم يفوت الفرصة، وباشر حل البرلمان وقرر التخلص من أعضائه الذين كانوا يسببون صداعًا يوميًا للملك لكن ذريعة الحل كانت مضحكة، فقد ادعى فشل المجلس بتخفيض أسعار الطماطم.

لم تنطل الخدعة على الجماهير الفقيرة الجائعة التي كانت ترى في المجلس الفرصة الوحيدة؛ لتقويم سلوك الملك وتحسين دخل المواطن فخرجت الجماهير بالألوف يقودها الأعضاء والنخبة المثقفة، واعتصم بعضهم بمبنى البرلمان. زاد من تعقيد الموقف تهور الملك الذي أمر قائدًا روسيًا لفرقة روسية خاصة كانت ترابط في إيران يدعى (لياخوف) بضرب مبنى المجلس بمن فيه بالمدفعية، ولم يكتف الشاه بذلك بل أمر بإلقاء القبض على السيد بهبهاني أحد قادة المظاهرات، ونفيه إلى كرمنشاه، ثم كربلاء وفرض منع التجول، وألزم السيد الطبطبائي أيضًا بيته إجباريًا تحت الحراسة المشددة، لكن الأمور لم تهدأ

بل زادت غليانًا وعنفًا الأمر الذي أجبر الشاه على إعادة الحياة البرلمانية رغمًا عنه في إبريل ١٩٠٩م.

ثم توالت الأحداث وأتى شاه وراء شاه، ولم تستطع روسيا مساندة الشاه بسبب التغيرات التي حدثت في موسكو والأحداث الدامية التي صاحبت الثورة البلشفية، ولم يمض وقت طويل حتى اضطرت روسيا إلى الخروج من حلبة الصراع الدولي أثناء اندلاع الحرب العالمية الأولى وبعد الاندلاع الفعلي للثورة البلشفية ١٩١٥م، وأعلنت من جانبها إلغاء معاهدة ١٩٠٧م الخاصة بإيران.

حلت بريطانيا مكان روسيا في إيران، وأصبح النفط المتدفق في إيران أهم المغريات، بل سال له لعاب الإنكليز، الأمر الذي أثار احتجاجات روسية وفرنسية لا قيمة لها، والحقيقة أن بريطانيا ليست حديثة العهد في إيران بل كان لها موضع رجل لكن الهيمنة الروسية كانت هي الطاغية، فقد استطاع البريطاني هكجراف تالبوت في نهاية القرن التاسع عشر الحصول على حق احتكار شراء وتصنيع التبغ في جميع أقاليم إيران عام ١٨٩٧ نظير دفع مبلغ ١٥ ريالاً سنويًا.

كذلك كانت بريطانيا أثناء الثورة الدستورية ١٩٠٧م داعمًا قويًا للشاه ضد المتظاهرين، فقد أرسلت إحدى سفنها الحربية إلى نهر كارون ١٩٠٧م لسحق المتظاهرين هناك، ثم هاجمت سواحل مكران عام ١٩٠٨م، كما أرسلت قوة عسكرية لتعقب المتظاهرين في بوشهر ١٩٠٩م.

لكن بعد الحرب العالمية الأولى خرجت روسيا من إيران وحلت بريطانيا محلها، وصادف أن بدأ النفط يتدفق في شمال إيران وجنوبه. الإنجليز كان لهم مواقف مخزية كثيرة مع الحكومة الإيرانية ليس لها مبرر، فعلى سبيل المثال لا الحصر كان موقف الإنجليز سلبيًا عندما قام الوفد الإيراني في مؤتمر الصلح

في باريس بعد الحرب العالمية الأولى بالمطالبة باسترجاع حدود بلاده إلى ما قبل معاهدة ترجمكانجاي ١٨٢٧م التي تشمل: أذربيجان الشمالية ومدينة باكو وأرمينيا الغربية ومدينة يرفان وقره باغ وقسم من داغستان[١٥].

في عام ١٩١٩ وقعت اتفاقية بريطانية إيرانية بموجبها تسلمت بريطانيا زمام الأمور في إيران، ولم يعجبها محاولة الإيرانيين استرجاع الهيبة والسيادة لبلدهم، فعمدت إلى تغيير المشهد السياسي برمته من خلال عمل انقلاب عسكري تستطيع من خلاله فرض سياسة الأمر الواقع على القوى السياسية في إيران فجاءت برجل الانقلاب رضا خان، وساعدته على تولي العرش وسط انقلاب سهل وناجح ضد العرش القاجاري في ٢١ فبراير ١٩٢١م[١٦].

هيمن الإنكليز على مقدرات وخيرات إيران، وكانوا معول هدم أكثر من كونهم معول بناء، بل رعوا مصالحهم فقط دون أخذ الاعتبار للمعيار الأخلاقي وأكبر مثال على ذلك في منتصف الثلاثينيات من القرن الماضي عندما أرادت الحكومة الإيرانية مد خط سكة حديد ليربط الشمال من بحيرة قزوين إلى الجنوب على الخليج العربي عاجلهم الإنكليز برفض المشروع برمته، تحت زعم أنه قد يمكن الروس من العودة مرة أخرى إلى إيران، والوصول عبرها إلى الخليج العربي !

هيمنت بريطانيا على إيران، وتحكمت بالوضع الداخلي والخارجي واستطاعت أن تستحوذ على مشاريع التنقيب عن النفط في الشمال والجنوب دون مضايقة تذكر، وإن كان هناك دخول أمريكي محدود يذكرنا بالمشهد في بداية القرن الماضي عندما كان هناك دور روسي كبير وإنكليزي محدود انتهى الأمر بخروج الروس وبقاء البريطانيين. نفس المشهد يتكرر الآن في منتصف الثلاثينيات من القرن العشرين. وجود بريطاني قوي وتسلل أمريكي محدود

ومدروس، على كل حال عندما شاهد السفير البريطاني الأوضاع تسير لصالح بلده، والشركات البريطانية النفطية بدأت هي الأخرى تستحوذ على إيران، أبرق لحكومته في لندن مبشرًا بعهد جديد من الازدهار، وأن وجود الشاه رضا خان يعد انتصارًا لمصالح بريطانيا النفطية في هذا البلد المهم[١٧].

الشاه رضا خان شخصية غريبة الأطوار فُرض على الشعب الإيراني فهو لا يتمتع بأي موهبة في القيادة أو إدارة الأزمات، صنع الإنكليز، وجيء به إلى الحكم ليدعم مشاريعهم الاستعمارية، وقد أكد رئيس الوزراء البريطاني تشرشل في برقيتين للورين سفيره في طهران (إنه يأمل في أن ينجح رضا خان في حركته، حيث إنه كثيرًا ما أظهر عواطفه الودية لبريطانيا، ولهذا فهو يستحق منهم كل مساعدة) كما توقع تشرشل أن يؤسس رضا خان دكتاتورية عسكرية فارسية متعاونة مع بريطانيا.

رضا خان عهده يعتبر الأسوأ في تاريخ إيران ويكفيه فقط اعتراف بريطانيا أنها هي التي جاءت به ليدعم وجودها ومخططها الاستعماري في إيران. لم تتطور البلاد في عهده إلا قليلاً بل سلبت خيراتها من قِبَل الإنجليز، وانصبت اهتمامات الشاه رضا على السفر المتكرر لبريطانيا وأوروبا والانبهار والإعجاب بحياة البذخ والإسراف بينما شعبه يئن من حياة العوز والفقر والجوع، ولنكن منصفين لا بد من ذكر بعض إنجازات انشاه رضا خان وإصلاحاته التي لا بأس بها، وإن لم تكن على مستوى طموح الفرد الإيراني خصوصًا في عصر التدفق النفطي في إيران، ومن تلك: افتتاح جامعة طهران، وإرسال البعثات التعليمية للخارج وافتتاح مدارس للإناث في المدن الكبرى وافتتح عددًا من السكك الحديدية التي ساهمت في ربط أجزاء البلاد ببعضها وتطور البريد والبرق والهاتف بعد شراء إيران للشركة الأوروبية الهندوربية.

بدأت الأحداث تتسارع في إيران وبدأت القوى الدولية تبحث لها عن قدم في إيران، ومع نهاية الثلاثينيات من القرن الماضي بدا وكأن هناك واقعًا جديدًا سيفرض على المجتمع الدولي، فقد بدأ الألمان يتحركون بكل الاتجاهات للتخلص من القيود والعقوبات التي فرضت عليهم إبّان الحرب العالمية الأولى، ولم يعد بالإمكان تحملها، وبدأ الوضع يغلي في جميع أنحاء العالم، ولم تكن إيران بمنأى عن هذا الغليان حتى أنها أُقحمت قسرًا في الحرب العالمية الثانية.

فمع انطلاقة شرارة الحرب اتجهت أنظار الولايات المتحدة الأمريكية صوب إيران تلك الأرض الغنية بالبترول، والتي ليست بعيدة عن الألمان، وقد تعاقبت عليها القوى الاستعمارية للفوز بالثروة الإيرانية، وأبلغت الخارجية الإيرانية سفيرها في طهران معلومات أكيدة وموثقة لتكون حليفًا للألمان في ضوء المعلومات المتوفرة للاستخبارات الأمريكية[١٨].

وحقيقة أن الشعب الإيراني يميل بشكل كبير نحو الألمان لاعتبارات سابقة، كون الألمان ساعدوا في تحرير فنلندا من السوفيت، وكون السوفيت والإنجليز لهم تجارب استعمارية في إيران، وبالفعل لم ينتظر الإنجليز والسوفيت كثيرًا بل دخلت قوات البلدين إيران تساندهم الدعاية الأمريكية مبررة دخول القوات بأنه كان لحماية إيران من غزو ألماني محتمل[١٩].

اتهم الشاه رضا بهلوي بالازدواجية في سياسته، ففي الوقت الذي سمح وسهل عبور قوات الغزو البريطاني السوفيتي نجده يتعاطف مع الألمان اعتقادًا منه أن النصر سيكون حليف هتلر، وبنفس الوقت لا يريد أن يظهر للشعب الإيراني المؤيد للألمان أنه منحاز لأمريكا وحلفائها حتى لا يغضبه.

سياسة الشاه رضا عجلت بعزله من قبل الإنكليز وأمريكا في ١٩ سبتمبر ١٩٤١م بحجة أو ذريعة استفراده بالسلطة، ومن ثم الديكتاتورية، ورحل إلى جزيرة موريشيوس ثم إلى جنوب إفريقيا التي توفي بها عام ١٩٤٤م، وقد قال رئيس الوزراء البريطاني تشرشل في ذلك "نحن الذين نصبناه على العرش الإيراني ونحن الذين عزلناه"، وخلفه في حكم إيران ابنه الشاه محمد رضا بهلوي، حيث كان أول قرار أصدره هو عزل وزير الحربية الإيراني أحمد ناجيف الذي كان قد أعطى أوامر عسكرية للجيش بمواجهة الغزو البريطاني السوفيتي على إيران، وهذا يدلل على التوجه الكبير للشاه الجديد نحو الإنكليز وحلفائهم الأمريكان، لكن الشاه الجديد الذي شاهد بعينه عملية خلع والده ونفيه من إيران استوعب الدرس جيدًا، وبدأ يدور في الفلك الأمريكي البريطاني حتى لا يتكرر السيناريو من جديد.

انتهت الحرب العالمية الثانية بهزيمة دول المحور وانتصار الحلفاء واستطاعت بريطانيا وأمريكا ترسيخ تواجدهما في إيران، والتمتع بكافة خيراته الطبيعية دون رادع، بل بتواطؤ من الشاه نفسه، لكن الأمور لم تستمر طويلاً هكذا، بل ظهر على الساحة الإيرانية شخصية جديرة بالاحترام وهو السيد محمد مصدق الذي انتخبه البرلمان الإيراني ٢٨ إبريل ١٩٥١م كرئيس لمجلس الوزراء الإيراني، معه بدأت حقبة جديدة من حقب الكفاح الوطني، ويعود الفضل له في عملية تأميم النفط الذي أرسى قواعدها مصدق إبّان تولية رئاسة الوزراء في إيران.

مصدق - وتأميم النفط:

درس محمد مصدق في فرنسا وقدم أطروحته للدكتوراه في القانون الدولي في إحدى الجامعات السويسرية، عاد إلى إيران وقدّم نفسه للانتخابات في البرلمان الإيراني عن محافظة أصفهان وهو في سن ٢٤ ، ثم شغل منصب وزير المالية في حكومة أحمد قوام السلطنة ١٩٢١م، وفي عام ١٩٢٣م اختير وزيرًا للخارجية في حكومة مشير الدولة، بعد ذلك توج نضوجه السياسي بقيادة الجبهة الوطنية التي مكنته بعد ذلك من أن يصبح رئيسًا للوزراء في أهم حقبة في تاريخ إيران الحديث.

وفي عام ١٩٥١م إبان تولي محمد مصدق رئاسة الوزراء قدّم مصدق لائحته في تأميم النفط الإيراني والتصدي للنفوذ الأمريكي البريطاني، اعترض الشاه محمد رضا بهلوي على لائحة مصدق، وقام بعزله بتحريض من أمريكا، لكن الشعب الإيراني خرج بمظاهرات عارمة، واستطاع أن يعيد مصدق إلى رئاسة الوزراء من جديد، فقام مصدق بعمل انقلاب أبيض، حيث فصل الجيش عن الشاه، وجعله يتبع رئاسة مجلس الوزراء، وقام بعزل عدد كبير من الضباط الفاسدين.

ثم باشر مصدق بعد عودته لرئاسة مجلس الوزراء تنفيذ لائحته الإصلاحية وكان على رأسها: تأميم النفط، ومنح المرأة حق الانتخاب وسن قانون للإصلاح الزراعي، ومصادرة المشروبات الروحية، ومنع بيعها، وإعادة النظر في الصلاحيات الممنوحة لرجال الدين، وإرساء الصبغة الليبرالية على العدل والتعليم[٢٠].

هذا التوجه الإصلاحي لم يرق للولايات المتحدة الأمريكية التي تدخلت

بشكل سافر وبمساعدة بعض ضباط الجيش الإيراني الساخطين على سياسة مصدق في محاربة الفساد في المؤسسة العسكرية، ووجهوا ضربتهم لحكومة مصدق في أوائل أغسطس ١٩٥٣م، ونجحوا في احتلال مقار الوزارات وألقوا القبض على الوزراء، واستعانت عناصر الانقلاب بقوة مكونة من ٣٧ دبابة يقودها أحد رجالات المخابرات الأمريكية، ونسفت مسكن رئيس الوزراء مصدق، واعتقل وحوكم بتهمة الخيانة العظمى، لكنه سجن ولم يعدم خوفًا من ردة فعل شعبية أخرى، ووضع مصدق تحت الإقامة الجبرية إلى أن توفي عام ١٩٦٧م، ومع نسف مشروع مصدق نسفت الثورة الشعبية برمتها ورغبة الشعب الإيراني في اختيار حكومته، وأرجعت الشاه من منفاه الذي هرب له وقتلت الولايات المتحدة الأمريكية الحلم الإيراني في امتلاك ثروته في عز فقره، لكن ثورة مصدق التي أجهضت عام ١٩٥٣م بتدخل سافر من أمريكا كانت الإرث الذي أسقط حكومة الشاه عام ١٩٧٩م.

أسندت أمريكا مهمة التخلص من مصدق لكرميت روزفلت رجل المخابرات الأمريكي وحفيد الرئيس الأمريكي السابق تيودور روزفلت وأستاذ التاريخ في جامعة هارفارد، ولتنفيذ المهمة وضعت ١٦ مليون دولار تحت تصرفه للإنفاق منها على إثارة الشارع ضد مصدق، وقد ذكر كرميت روزفلت بعد ذلك "أن الأمر كان سهلاً وميسرًا" وأنه لم ينفق أكثر من نصف المبلغ على العملية التي أطلق عليها اسم (أجاكسي) التي قضت على الحلم الإيراني وأعادت الشاه إلى الحكم[٢١].

لقد كانت عملية تأميم النفط مكلفة لإيران، حيث ألغى البرلمان وأطيح بحكومة مصدق من أجل الإبقاء على المصالح البريطانية في المنطقة بعيدًا عن التذبذب في أسعار النفط[٢٢]، وبدأت الفوضى تدب في الاقتصاد الإيراني، وبرز

النفط فاعلاً في الإبقاء على الأوضاع على حالها دون المزيد من التدهور[٢٣].

حيث ركز الشاه على إنفاق الجزء الأكبر منه في برامج التصنيع، وَهَدَف من وراء ذلك إلى جعل إيران بحلول عام ٢٠٠٠م الدولة الصناعية الخامسة الكبرى على وجه الأرض[٢٤]، فسارع لإقامة المفاعلات النووية، وإنشاء شبكة من محطات الطاقة الكهربائية التي تعمل من خلال الطاقة المائية بدلاً من النفط بحيث يقتصر دوره على صناعة المنتجات البلاستيكية والبتروكيماوية التي تكون مبيعاتها أعلى مردودًا من النفط الخام.

إلا أن جهود الشاه لم تنجح في إيجاد حل للمشاكل الاقتصادية الخانقة التي تمر بها البلاد ناهيك عن الطابع البوليسي القمعي التي اتسمت بها سياسة الشاه في أيامه الأخيرة، الأمر الذي زاد من وتيرة الأحداث والمظاهرات، وما أن جاء عام ١٩٧٨م حتى أطلت الثورة الإسلامية الإيرانية التي أزالت الشاه ونظامه.

الثورة الإسلامية:

بعد القضاء على ثورة مصدق أخذ الغرور يتسلل إلى قلب الشاه الذي أيقن أنه من المستحيل سقوطه مرة أخرى بعد أن فشلت ثورة كان الهدف منها تحسين وضع الشعب الإيراني، ومع ذلك لم تحظ تلك الثورة بتأييد أغلب الإيرانيين، لكن الشاه جهل أنّ مَن حرك ثورة مصدق هم الإسلاميون، ولا يزال موقف وكلمات آية الله أبو القاسم كاشاني عندما طلب من ابنه محمد أن يحضر الكفن، وذهب بنفسه إلى ميدان المظاهرة ضد الشاه في الخمسينيات من القرن الماضي، ونزع ملابسه ولف نفسه بالكفن استعدادًا للموت.

الشاه تجاهل الإسلاميين تمامًا، ولم يعرهم أي اهتمام، وأوغل في الفساد لدرجة لا تعقل، ومن فرط الثقة سأله أحد الصحفيين البريطانيين: ألا يخاف من

الانقلاب جراء غطرسته وفساده؟ فرد عليه الشاه بتهكم وسخرية: "لا يستطيع أحد أن يسقطني، إن نصف مليون جندي يقفون وراني، ووراؤهم أغلب العمال وكل الفلاحين، أما هؤلاء الغربان السود من رجال الدين فأنا أستطيع أن اشتريهم وأبيعهم بأي ثمن وبأي سوق!".

لقد جهل الشاه حقيقة الشعب الإيراني، وأوغل في فساده إلى درجة غير معقولة حتى أصبحت إيران مرتعًا لكل من يبحث عن الجنس والخمر والمخدرات. انتشر الجوع والفقر والبطالة بين غالبية الشعب الإيراني والشاه يعد العدة في بداية السبعينيات من القرن الماضي لاحتفالات خرافية كبيرة في برسبوليس بمناسبة مرور ٢٥٠٠ عام على عمر الملكية في إيران، حشد لها أكثر من ٥ مليارات دولار، جمع أجمل بنات إيران في ذلك الحفل؛ ليستمتع بهن الحضور، وأعاد الاحتفالات والطقوس الفارسية في زمن كسرى أنو شروان.

بدأ التذمر ينتشر من إيران حتى وصل إلى وزراء الشاه الذي حضر احتفال في عيد الفطر مع وزرائه، واقترب من الشاه أحد الوزراء الشجعان يهنئ الشاه بالعيد قائلاً:

الوزير: آخر الأعياد.

الشاه: آخر أعيادك أنت.

الوزير: من الممكن أن تحيي أعياد أخرى إذا اعتدلت.

الشاه ساخرًا: الاعتدال يكون في السجائر والخمر وليس الإصلاح !

كانت زوجة الشاه الشاهبانو فرح تسير بجانب الشاه، وسمعت ما دار بين زوجها والوزير فعلقت قائلة: أيها الشاه إن وزيرك هذا شجاع ومخلص لك.

بدأت وتيرة الأحداث تتسارع في إيران والمظاهرات تتحرك في جميع أنحائها بل بدأ الشاه يواجه المتظاهرين بشكل أكبر عند زيارته لأي بلد، ومع ذلك لم يفعل أي شيء يهدئ من غضب الشعب الإيراني، وبدأت الأحوال تتدهور بصورة أكثر حدة منذ يوليو ١٩٧٨م، حيث قام السفير الأمريكي في طهران سوليفان، وكذلك السفير البريطاني بزيارة للشاه في قصره؛ ليؤكدا له من جديد دعم بلديهما لعرشه[٢٥].

وبعد نجاح الثورة الإسلامية وهروب الشاه إلى مصر بدأت الولايات المتحدة تستخدم أساليبها في الابتزاز والضغط، وفرضت على إيران عقوبات مختلفة الأمر الذي جعل الثوار يحتلون السفارة الأمريكية في طهران في ٤ نوفمبر ١٩٧٩م، ويحتجزون مَن كان بها.

لم تترك الولايات المتحدة الأمريكية إيران وشأنها بل بدا الأمر وكأنه انتقام. استمرت العلاقة بين البلدين متوترة حتى الوقت الراهن، ولم تدخر أمريكا وسعًا في الإضرار في مصالح إيران أينما كانت هذه المصالح. إنها روح الانتقام التي تمارسها أمريكا على كل من لا يسير في فلكها.

بعد رحيل الشاه ووصول رجال الدين إلى السلطة واجهوا اقتصادًا متدهورًا، وتوقفت الكثير من المشاريع الإنمائية، وهرب الكثير من الموظفين الحكوميين، وانتشرت البطالة، وحدثت اضطرابات كثيرة ناتجة عن الإصلاحات التي كان يقررها رجال الدين وليس أصحاب الخبرة والاقتصاد الذين فضلوا العمل خارج إيران، حيث وجدوا أن هناك تضييقًا على جميع خطط التنمية بدعوى أنها ضد الإسلام.

إلى جانب ذلك كان هناك الأثر السلبي للحرب الإيرانية - العراقية التي كبدت الاقتصاد الإيراني الكثير، ومن آثار تلك الحرب أن خسائر الاقتصاد

الإيراني من جراء الحرب مع العراق تكشف عنها بعض الإحصاءات، فقد وصلت نسبة التضخم السنوي خلال الحرب إلى ٤٠٪ وبلغت نسبة البطالة ربع القوى الإيرانية العاملة، وهبط دخل الفرد من ٢٤٠٠ دولار سنويًا عام ١٩٧٧م إلى ١٣٠٠ دولار عام ١٩٨٧م[٢٦].

ولقد حرضت أمريكا الرئيس العراقي صدام حسين على شن حرب ضد إيران في بداية الثورة الإيرانية ١٩٨٠م معتقدة أن إيران تعيش تحولات داخلية لن تمكنها من التعامل مع أي خطر خارجي، وبذلك تسقط الثورة مع اندلاع شرارة الحرب الأولى، إلا أن مثل ذلك لم يحدث بل استطاعت الحرب توحيد الإيرانيين بكافة شرائحهم وأطيافهم للوقوف بوجه الخطر الخارجي، واستطاعت إيران في النهاية كسب الحرب التي استمرت ثماني سنوات ضد العراق الذي ساانده أغلب الدول العربية والقوى العظمى مثل: أمريكا وبريطانيا وفرنسا، إلا أنه - مع ذلك - لم يحقق أي نصر أو نتيجة من تلك الحرب المشبوهة.

وحاولت أمريكا دعم القوى المعارضة في الداخل والخارج ودعم أي حركة انقلاب إلا أن جهودها باءت بالفشل الذريع، وجلست تراقب وتتحين الفرصة من جديد للانقضاض على إيران والانتقام، وها هي الآن تركز وتستخدم دعايتها الإعلامية للحديث عن البرنامج النووي الإيراني التي كانت هي أول المساهمين بإنشائه في الستينيات من القرن الماضي.

البرنامج النووي الإيراني:

من خلال التفحص التاريخي يتضح أن الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاءها كانوا وراء ولادة البرنامج النووي الإيراني في نهاية الستينيات وبداية السبعينيات، وأن أول مركز تم بناؤه كان في عهد الشاه ١٩٦٧م وفي إطار

الاتفاقية الثنائية بين إيران وأمريكا، وسمّي مركز طهران للبحوث النووية، ويقع في جامعة طهران، ويدار من قِبَل مؤسسة الطاقة الذرية الإيرانية، ويحتوي المركز على مفاعل بقدرة ٥ ميجاوات تم تزويدهم به من قِبَل الأمريكيين، ولهذا المفاعل القدرة على إنتاج ٦٠٠ جرام من البلوتونيوم سنويًا.

وقد شجع الأمريكان الإيرانيين على زيادة بحوثهم لإيجاد مصادر للطاقة غير النفطية، واقترحوا إنشاء عدة مفاعلات نووية للحصول على الطاقة الكهربائية، وفعلاً استمرت الجهود الإيرانية في هذا الشأن، واستطاعت في فترة قصيرة أن تقطع شوطًا كبيرًا بهذا الشأن، ومنحت ترخيص لشركة كرافت فيرل - وهي شركة من شركات سيمنز الألمانية - لإنشاء مفاعلين نوويين بقدرة ١٢٠٠ ميجاوات في بوشهر، وحددت البدء بعمل المفاعلات بعام ١٩٧٤م.

وفي عام ١٩٧٥م قام معهد ماساتشوش للتكنولوجيا بتوقيع عقد مع مركز طهران للبحوث النووية لتدريب أول كادر من المهندسين النوويين الإيرانيين في أصفهان في منتصف السبعينيات من القرن الماضي بمساعدة فرنسية، وأيضًا إنشاء معهد نووي في أصفهان يحتوي على أربع مفاعلات صغيرة للأبحاث تم تزويدهم بها من الصين[٢٧].

قطعت إيران شوطًا كبيرًا في عملية البحث النووي وبمساعدة غربية شارك الجميع فيها، لكن أحداث طهران في أواخر السبعينيات من القرن الماضي وما صاحبها، واندلاع الثورة الإسلامية في إيران ونجاحها في الوصول لسدة الحكم لم يكن في الحسبان لأمريكا وحلفائها، بل شكّل هذا البرنامج لهم قلقًا كبيرًا، وأصبح فشله أو ضربه عسكريًا هو الشغل الشاغل لأمريكا ومَن يسير في فلكها.

استمرت إيران في رعاية المشروع النووي على كافة الأصعدة، ويقال

إن تهريب مخصبات اليورانيوم تم في طائرة الإمام الخميني القادمة من باكستان أثناء زيارة رسمية، وأن من قام بتلك العملية هو السيد علي أكبر ولايتي الذي تولى وزارة الخارجية بعد ذلك.

نتيجة للدعاية الأمريكية السلبية تجاه إيران والموقف العدائي تم تسليط الضوء على البرنامج النووي الإيراني بصورة مأساوية تراجيدية مما أثار الرعب في أمريكا وأوروبا قاطبة، وبالغت أمريكا حيال ذلك، ومن القصص التي اشتهرت وانتشرت في أمريكا بداية الثمانينيات من القرن الماضي قصة الكارثة ٧٩، وشخصيات القصة خليط من الشخصيات الحقيقية بأسمائها المعروفة والخيالية التي تكمل سياق القصة المثيرة، ومؤلف القصة الأمريكي بول فريدمان، ويدور محور القصة حول الشاه محمد رضا بهلوي عندما أصدر أوامره بإلقاء القنبلة الذرية على آبار البترول في إيران والبلاد العربية، الأمر الذي أحدث كارثة هائلة في أمريكا وأوروبا قاطبة بحيث توقفت الحياة العصرية وبدأت الناس تتقاتل، والحياة تعود إلى العصر الوسيط والحجري.

مبالغة سينمائية ودعاية أمريكية موجهة إلى العنصرين: الأمريكي والأوروبي. إن تلك الكارثة قد تحدث على حكم الشاه العاقل الحليف، فما بالك الآن في عهد الخميني العدو غير العاقل، لتأخذ أمريكا المبررات لضرب إيران أو إلحاق الضرر بها بمساعدة من الحلفاء طبعًا.

لم تتوقف إيران عن الاستمرار في عملها في مشروع البرنامج النووي وربما تكون حربها مع العراق التي استمرت ثماني سنوات وبتكالب المجتمع الدولي ضدها ظلمًا ساهمت في التحفيز للانتهاء من البرنامج النووي بنجاح. استمرت إيران في رعاية برنامجها النووي، وتعاملت بسرية وبحرفية مع الشركات المختصة الكبرى وبطريق الصدفة تم فضح عملية تهريب في ١٧

مارس ١٩٨٤م، حيث وصلت إلى جمارك مدينة باسا الألمانية (تقع قرب الحدود النمساوية) ثلاث قاطرات محملة بثمانين طنًا من المتفجرات المشحونة من السويد والمرسلة إلى شركة أرماتورين في بلدة روستوف قرب مدينة شفاننشتادت النمساوية، وهذه الحمولة لم ترسل إلى الهدف المعلن، بل حولت عن طريق شركة شحن في باسا إلى بلدة شتادة على نهر الألب، ثم شحنت بالطريق النهرية والبحرية إلى سوريا، ومن هناك إلى إيران[٢٨]

وفي العشرين من يونيو ١٩٨٤م كشف تقرير أن شركة ديل الألمانية ومقرها الرئيس نورنبرغ استطاعت من خلال فرعها في البندقية الإيطالية الذي يحمل اسم يونجهاوس من تصدير:

١٥٠ ألف صاعق نوي دي إم ١٠٥٨.

١٢ ألف طن من مساحيق التفجير.

١٠٠ ألف بطارية من نوع BAB21.

٩٠٠ ألف وسيط تفجير تتولى تدبيرها شركة شحن ديجن السويسرية[٢٩].

وقامت شعبة تكنولوجيا الدفاع التابعة لشركة فوست الباين في النمسا خلال عام ١٩٨٥-١٩٨٦ ببيع إيران ١٤٠ مدفعًا بقيمة ٣٠٠ مليون دولار، ولم تتم عملية البيع إلا باعتماد شهادة مزورة توحي بأن بانمستقبل الأخير للمدافع هو ليبيا والبرازيل، لكن الحقيقة كانت غير ذلك.

وفي ٢٧ أغسطس ١٩٨٦ قامت الشركة الأمريكية للنقل الجوي بيبول إكسبرس بشحن قطع غيار إلكترونية هامة إلى أوروبا، وبعد أن وصلت هذه القطع المشحونة في صناديق مطار زافينم البلجيكي تولت شركة بلجيكية بعد أربعة أيام شحنها إلى طهران في ٣١ أغسطس ١٩٨٦م.

هذه فقط أمثلة للنجاحات الإيرانية باختراق الحصار الذي فرض عليها من قِبَل أمريكا وحلفائها إبّان نجاح الثورة الإسلامية في طهران، وقد استطاعت إيران أن تكسب ود واحترام الشركات الكبرى العالمية لمصداقية التعامل وخاصة الفرنسية والألمانية، كما استطاعت إيران أن تستفيد من الدول التي لا تربطها علاقات جيدة مع أمريكا كالصين ودول أمريكا الجنوبية وكوريا الشمالية، كذلك استفادت إيران من التجربة الباكستانية ومن خبرة العالم النووي عبد القادر خان، وكسبت تعاطف أغلب الشعوب الإسلامية.

وفي عام ١٩٨٧م دعا رئيس الوزراء الفرنسي جاك شيراك الأمير السعودي سلمان بن عبد العزيز (شقيق الملك) إلى مأدبة غداء، اتهم الأمير خلالها فرنسا بتزويد إيران بالأسلحة، لكن شيراك أجابه بقوله: "منذ علمنا أن طائرات الهيلوكبتر التي زودنا بها إندونيسيا حسب رغبة سموكم قد ظهرت في طهران قطعنا منذ ذلك تزويد إيران بالسلاح"(٣٠).

إيران تدخل النادي النووي:

استفادت إيران كثيرًا من الأوضاع في المنطقة، فاستفادت من تخبطات الرئيس العراقي صدام حسين، أو سياسة الولايات المتحدة الأمريكية وانحيازها التام لإسرائيل، وكسبت تعاطف بعض الدول العربية مثل: سوريا والجزائر، وكسبت تعاطف بعض الدول الإسلامية مثل: تركيا وإندونيسيا، كذلك تعاطف أغلب الشعوب الإسلامية، واستطاعت أن تعمل بصمت على تطوير برنامجها النووي، وأوكلت مشروعها لعدد من السياسيين المهرة.

وأعلنت إيران في عام ٢٠٠٣م إبّان عهد الرئيس الإصلاحي محمد خاتمي، وعبر الإعلام بأن إيران دخلت العصر النووي بتدشين مفاعل ناتانز

ودعا خاتمي الوكالة الدولية للطاقة الذرية بزيارة إيران للتأكد من الأغراض السلمية للمفاعل الإيراني، ولا يوجد ما يمنع إيران من الخوض في غمار المشروع النووي، إذ إن معاهدة الحد من الانتشار النووي تتيح لإيران بناء مفاعلات نووية بما فيها التي تقوم بإنتاج اليورانيوم المخصب إذا كانت للأغراض السلمية.

واستطاعت إيران خلال فترة التسعينيات من القرن الماضي تطوير مشاريعها النووية في أربعة مفاعلات نووية هي:

١- مفاعل بوشهر النووي: لتوليد الكهرباء بالطاقة النووية، وقد دُشّن العمل بهذا المفاعل رسميًا في أغسطس ٢٠١٠م بمساعدة روسية.

٢- ناتانز: محطة لتخصيب اليورانيوم.

٣- آراك: محطة للمياه الثقيلة.

٤- أصفهان: لتحويل اليورانيوم.

وهناك أكثر من مركز للأبحاث النووية أكثرها شهرة مركز طهران للأبحاث النووية التابع لجامعة طهران، ومركز أصفهان للتكنولوجيا النووية.

وتكمن المشكلة في عملية تخصيب اليورانيوم، إذ تتهم واشنطن طهران بأن عملية التخصيب في طهران ليست آمنة، إذ إن ما يخصب لا يستخدم في الأغراض السلمية، وتدخلت مؤخرًا عدد من الدول لنزع فتيل التوتر والحيلولة دون إصدار المزيد من العقوبات الدولية ضد إيران، وكان آخر تلك الدول البرازيل وتركيا اللتان اقنعتا إيران بالموافقة على إرسال ١٢٠٠ كيلوجرام من اليورانيوم المخصب بدرجة ٣,٥٪ إلى تركيا مقابل الحصول على ١٢٠ كيلوجرام من اليورانيوم المخصب بدرجة ٢٠٪.

والتخصيب هو عملية اليورانيوم ٢٣٨ اليورانيوم ٢٣٥ قبل أن يتم حرقه كوقود في المفاعلات النووية أو استخدامه لصنع الأسلحة النووية.

ولا تثق الولايات المتحدة في دوافع إيران السلمية، بل تعتقد أن المشروع النووي الإيراني يمثل كارثة في المنطقة والعالم، لذلك هي الآن تتصدى لجعل إيران تتراجع عن مشروعها النووي، كذلك إيران التي تدعي عكس الولايات المتحدة، وأن مشروعها للأغراض السلمية البحتة.

ولا تملك الولايات المتحدة حاليًا سوى خيار التهديد والوعيد بالتدخل العسكري، لكن إيران تعتقد أن أمريكا لا تستطيع الإقدام على خطوة مثل تلك مبررة ذلك بعدد من الشواهد والمعطيات منها:

١- تملك إيران قدرة ردع عسكرية.

٢- تملك إيران حضور استخباراتي مكثف في الشرق الأوسط خصوصًا: العراق ولبنان وسوريا والخليج العربي.

٣- تستطيع إيران ضرب القطع البحرية الأمريكية في الخليج العربي.

٤- أمريكا تترنح جراء الحروب المتكررة، وحروب الاستنزاف في العراق وأفغانستان.

٥- المفاعلات النووية الإيرانية بعيدة عن بعضها بشكل كبير، ويصعب ضربها في وقت واحد.

استهلكت الولايات المتحدة الأمريكية جهدها في الخوض في صراعات مع خصوم غير معروفين، وأعطت خصومها فرصة للانتقام، وأوضح صورة تجلت في التدخل الأمريكي في أفغانستان، الأمر الذي مكن الروس من رد

الصاع صاعين بتهريب السلاح، ودعم الثوار من حركة طالبان ليس حبًا بهم ولكن كرهًا بالأمريكان الذين لعبوا نفس الدور في ثمانينيات القرن الماضي عندما احتل الاتحاد السوفيتي أفغانستان، وبدأت الولايات المتحدة بدعم الثوار الأفغان ضد الجيش الأحمر، وربما يكون هذا سببًا من الأسباب التي أدت إلى انهيار الاتحاد السوفيتي بعد انسحابه من أفغانستان فقط بسنة واحدة.

أيضًا إيران استطاعت أن تنتقم وبسهولة من الولايات المتحدة بسبب الموقف الأمريكي المنحاز للعراق في حرب الخليج الأولى ١٩٨٠-١٩٨٨م، إبان الاحتلال الأمريكي للعراق ٢٠٠٣م وقامت إيران بزرع خلاياها الإرهابية وزودت العراقيين على اختلاف أطيافهم بالسلاح لتكبيد القوات الأمريكية خسائر في الأرواح والممتلكات، وهو ما حدث فعلاً حتى اضطرت أمريكا للانسحاب دون تحقيق النتيجة المرجوة، وهي تحقيق الأمن والاستقرار في العراق.

والولايات المتحدة الأمريكية التي تميزت بالحنكة السياسية سابقًا، حيث كانت تحقق الإنجاز دون بذل خسائر، مثل خوضها الحرب العالمية الأولى في آخر سنة لتحصد النجاح، ونفس السيناريو تكرر في الحرب العالمية الثانية لتحصد نجاحًا آخر دون عناء . الآن تخوض في الوحل ولا تستطيع الخلاص وها هي كوريا الشمالية تضرب بالتهديدات الأمريكية عرض الحائط، ونفس الأمر ينطبق على إيران التي لا تلتفت للتهديد والوعيد الأمريكي، بل تستمر بمشروعها النووي محققًا النجاحات الواحد تلو الآخر، ومهددة الولايات المتحدة بأن أي فعل عدواني ضدها سوف يكلف أمريكا الكثير، والمبررات الإيرانية واقعية ومنطقية.

إيران تحمل ذاكرة مزرية للتدخلات الغربية التي سلبت إيران خيراتها ومقدراتها، وربما يعتبر الشعب الإيراني أكثر الشعوب كرهًا للهيمنة الغربية وتعسفها تجاه الدول الأخرى المستضعفة، ويجب فهم العقلية الإيرانية، حيث إن التجربة المريرة الطويلة مع الاستعمار جعلت من هذا الشعب قوة لا يستهان بها، ناهيك عن أن لإيران حضارات ساهمت في تطور البشرية، وهي أكثر البلدان استيعابًا للحضارات، فمن الفارسية للميدية إلى التخمينية، وهكذا توالت الحضارات على إيران، فبدأ الإنسان الإيراني يعتقد أنه أكثر قوة وحضارة من غيره من الأمم خاصة أمريكا.

خاتمة :

وفي الختام نكون فيه وصلنا إلى ماهية البحث الذي بذلت به مجهودًا طيبًا، وحاولت من خلاله فهم وبحث طبيعة العلاقة بين جمهورية إيران والدول الغربية وإشكالية العلاقة بينهم، وخاصة فهم طبيعة العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية وإيران على وجه الخصوص، والحقيقة التي توصلت لها أن جميع الدول التي استعمرت إيران لم تترك بصمة طيبة على الإطلاق، فالروس سعوا قدر جهدهم لعزل المناطق الشمالية من إيران مثل: أذربيجان وباكو عن الوطن الأم إيران، والإنكليز وقفوا ضد الدستور في إيران، وركزا صراعهم على إخراج الروس فقط، حتى عندما طلب الشاه من الإنكليز المساعدة لمد خط سكة حديد لربط شمال إيران بجنوبها للمحافظة على وحدة البلاد، رفض الإنكليز بحجة سخيفة، وهي خوفهم من وصول الروس إلى الجنوب من خلال تلك السكة، ومنها إلى مياه الخليج العربي الدافئة.

أيضًا الإنكليز والأمريكان قضوا على ثورة مصدق ١٩٥١م لتأميم النفط، وهم أيضًا وقفوا ضد الثورة الإسلامية في إيران، وحاولوا بكل الجهد إفشالها لكن ذلك لم يحدث، وهم من أوعز لحاكم العراق ليستغل الأوضاع والفوضى في إيران جراء الثورة؛ ليعلن حربه المجنونة تحت ذريعة استرداد أراض مسلوبة في شط العرب هو نفسه من تنازل عنها في اتفاقية الجزائر ١٩٧٥م.

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUTE OF ARAB RESEARCH AND STUDIES
تحت إشراف جامعة الدول العربية

الهوامش

(١) حسن محمد طوالبة، مناقشة النزاع العراقي الإيراني، بيروت: الوطن العربي، ١٩٨٤، ص٥١.

(٢) حسن محمد طوالبة، مناقشة النزاع العراقي الإيراني، بيروت: الوطن العربي، ١٩٨٤، ص٥٢.

(٣) أبو غزالة، عبد الحليم، الحرب العراقية الإيرانية، (١٩٨٠-١٩٨٨) ١٩٩٣ - ص١٢٢.

(٤) هويدي، أمين، البروستوريكا وحرب الخليج الأولى، دار الشروق، الطبعة الأولى ١٩٩٧، ص٢٣.

(٥) فلاح عبد الله المديرس، الحركة الشيعية في الكويت، الطبعة ١، الكويت، دار قرطاس للنشر، ١٩٩٩، ص٢.

(٦) ب. ج. سلوت. عرب الخليج في ضوء مصادر شركة الهند الشرقية الهولندية (١٦٠٢-١٧٨٤)، عايدة خوري، مترجم. الطبعة ١، ١٩٩٣، ص٦٤-٧٦.

(٧) يعقوب يوسف الغنيم، الكويت، الكويت تواجه الأطماع، مركز البحوث والدراسات الكويتية، الكويت، الطبعة الأولى، ص٣٧.

(٨) حبيب الرحمن، حرب التحرير الكويت وجذورها ومقوماتها، بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر الطبعة الأولى، ١٩٩٩، ص٤٠٣.

(٩) محمد علي الدواود، الخليج العربي والعلاقات الدولية (١٨٩٠-١٩١٤م) القاهرة: دار المعرفة، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالمية، ص١١٥.

(١٠) الريس، رياض نجيب، عودة الاستعمار من الغزو الثقافي إلى حرب الخليج، الطبعة الأولى ١٩٩١، رياض الريس للكتب والنشر لبنان، ص١٢٥.

(١١) يحيي حلمي رجب. الخليج العربي والصراع الدولي المعاصر. الكويت: دار العروبة للنشر، ١٩٨٩. ص٩٤.

(١٢) فاضل رسولن، العراق - إيران أسباب وأبعاد النزاع، المعهد النمساوي للسياسة الدولية، مطابع الهيئة العامة للاستعلامات ١٩٩١، ص٣٣.

(١٣) خليل إلياس مراد، حرب الخليج وانعكاساتها على الأمن القومي العربي، بغداد: دار الحرية، ١٩٨٧م،ص٣٦.

(١٤) هيكل، محمد حسنين، الإمبراطورية الأمريكية والإغارة على العراق، الطبعة الأولى، أكتوبر ٢٠٠٣، الشركة المصرية للنشر العربي والدولي، القاهرة، ص٣٠.

(١٥) هيكل، محمد حسنين، الإمبراطورية الأمريكية والإغارة على العراق، الطبعة الأولى، أكتوبر ٢٠٠٣، الشركة المصرية للنشر العربي والدولي، القاهرة ص٣٢

(١٦) مروان، جمال مصطفى، عبد الكريم قاسم، البداية والسقوط، نشر وتوزيع المطبعة الشرقية، بغداد ص٤٦.

(١٧) مجموعة من الباحثين العرب، أسرار التسليح العسكري في العراق منذ ١٩٦٨ الفضائح والاحتيالات، منشورات دار الأبحاث والدراسات العربية لندن ١٩٩٣، ص١٢٥.

(١٨) هيرالد تريبيون الدولية كانون الثاني ٣١، ١٩٨٨.

(١٩) الواشنطن بوست كانون الثاني ٣١، ١٩٨٨.

(٢٠) يحيى حلمي رجب، الخليج العربي والصراع الدولي المعاصر، الكويت: دار العروبة للنشر، ١٩٨٩، ص١٨٧.

(٢١) يحيى حلمي رجب، الخليج العربي والصراع الدولي المعاصر، الكويت: دار العروبة للنشر، ١٩٨٩، ص١٩٦.

(٢٢) جاسم السعدون، منتدى التنمية، ص٦١.

(٢٣) وليد محمود عبد الناصر، ثلاث دوائر إقليمية في السياسة الخارجية الإيرانية، مركز الأهرام للدراسات الاستراتيجية، ص٢.

(٢٤) رجاء إبراهيم سليم، "حول الجهود الدولية لإنهاء الحرب" السياسة الدولية، ع ٨٥: يوليو ١٩٨٦، ص١٢٦.

(٢٥) فؤاد مطر، الخميني وصدام: القرار الصعب والخيار الأصعب. بيروت: الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٧، ص٣٠.

(٢٦) أمال السبكي، تاريخ إيران السياسي بين ثورتين ١٩٠٦-١٩٧٩، سلسلة عالم المعرفة، أكتوبر، ١٩٩٩، العدد ٢٥.

(٢٧) وثائق سرية منشورة من قبل الأرشيف الرقمي للأمن القومي: بعنوان "النزاع النووي الإيراني مهمة الدكتور محمد البرادعي المستحيلة" كتبها الدكتور اعتماد والدكتور مشكاتي ونشرت في الثالث عشر من تموز٢٠٠٣م في الأخبار الإيرانية.

(٢٨) يورجين روث، صفقات الأسلحة المشبوهة وحرب الخليج، ترجمة سامي أبو يحيى، ١٩٩٠، دار الشعب للطباعة والنشر، القاهرة، ص٦٠.

(٢٩) يورجين روث، المصدر نفسه، ص٦٧.

(٣٠) يورجين روث، المصدر نفسه، ص٣١.

المراجع والمصادر

أولاً- المراجع:

- أحمد باسل البياتي، أهمية موقع إيران الجغرافي لأمن الاتحاد السوفيتي وأثر ذلك على العلاقات بين البلدين ١٩١٨-١٩٤١ م، الموصل، العراق.
- أحمد عنايت، الفكر السياسي المعاصر، ترجمه من الفارسية وراجعه من الأصل الإنكليزي د. إبراهيم شتا، القاهرة ١٩٨٨.
- أحمد محمود الساداتي رضا شاه بهلوي، النهضة المصرية، ١٩٧٩.
- أحمد مهابة، إيران بين التاج والعمامة، كتاب الحرية، القاهرة ١٩٨٩م.
- إبراهيم الدسوقي شتا، الثورة الإيرانية: الصراع - الملحمة - النصر، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة ١٩٨٦.
- إدوار سابليه، إيران مستودع البارود، ترجمة جعفر خياط، بيروت ١٩٤٩.
- أمال السبكي، تاريخ إيران السياسي بين ثورتين ١٩٠٦-١٩٧٩، سلسلة عالم المعرفة، أكتوبر، ١٩٩٩، العدد ٢٥.
- جمال حمدان، استراتيجية الاستعمار والتحرير، دار الشروق، القاهرة ١٩٨٣.
- خيرت البيضاوي، إيران ترقص على كف عفريت، بيروت ١٩٥٤.
- سليم واكيم، العلاقات العربية الإيرانية عبر التاريخ، ١٩٦٧.
- فوزية محمد صابر، تاريخ إيران بين الحربين العالميتين ١٩١٨ - ١٩٣٩، رسالة ماجستير غير منشورة في التاريخ الحديث، كلية الآداب جامعة البصرة، أكتوبر، ١٩٨٦.
- فهمي هويدي، إيران من الداخل، مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٨٨.
- كمال مظهر، رضا المازنداراني والعرش الإيراني، بغداد ١٩٨٠.
- كمال مظهر، دراسات في تاريخ إيران الحديث والمعاصر، بغداد ١٩٨٥.
- محمد فتحي الريس، إيران وعلاقتها الخارجية في العهد الصفوي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٨٩.

ثانيًا- المصادر:

- إسماعيل صبري مقلد. أمن الخليج وتحديات الصراع الدولي: دراسة للسياسات الدولية في الخليج منذ السبعينات. الكويت: الربيعان للنشر والتوزيع، ١٩٨٤.
- حسن محمد طوالبة. مناقشة النزاع العراقي الإيراني. بيروت: الوطن العربي، ١٩٨٧م.
- خليل إلياس مراد. حرب الخليج وانعكاساتها على الأمن القومي العربي.
- سعيد خديدة علو. العلاقات العراقية الإيرانية وأثرها على القضية الكردية. عمان: دار دجلة، ٢٠٠٧.
- فؤاد مطر. الخميني وصدام: القرار الصعب والخيار الأصعب. بيروت: الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٧.
- مؤيد الأعظمي الحرب عراقية الإيرانية في الميزان. بيروت: مؤسسة الفجر، ١٩٨٧.
- يحيى حلمي زجب. الخليج العربي والصراع الدولي المعاصر. الكويت: دار العروبة للنشر، ١٩٨٩.
- المعاهدة العراقية ـ الإنكليزية مع الاتفاقيات الملحقة بها، القاهرة، المطبعة العربية بمصر، ١٩٢٦.
- الطيب البكوش، الخليج بين الهيمنة والارتزاق، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله.
- الأعظمي ظريف، تاريخ الدولة الفارسية في العراق، مطبعة الفرات، بغداد، ١٩٢٧.

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUTE OF ARAB RESEARCH AND STUDIES

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUT DE RECHERCHES ET D'ETUDES ARABES
تحت إشراف جامعات العربية